﴿۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: 113 - 114]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لمّا حكمَ اللّٰهُ تعالى على أكثرِ أَهلِ الكتابِ بأنَّهمْ فاسقونَ، وذكرَ أَوصافَهمْ وعقوبتَهمْ في الآيةِ السَّابقةِ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ لإنصافِ طائفةِ المؤمنينِ منهم بذكرِ محاسنِهم وأَوصافِهم وثوابِهم، بعدَ أَنْ أجملَ الكلامَ عليهم في قولِهِ: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]، كما أنَّ في الآيةِ استمالةً وحثًّا لِسائرِ أهل الكتاب على أَنْ يكونوا مثلَ هذهِ الطَّائفةِ المؤمنةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَآءً﴾: يدلُّ معنى سَوِيَ: على اسْتِقَامَةٍ وَاعْتِدَالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وهو مأخوذٌ من التَّساوي، وسواءُ الطَّريقِ: وسطُهُ المعتدلُ لِتساوي طرفَيهِ، وَالسِّيُّ: المِثْلُ، وسِيَّانِ: مِثْلَانِ؛ ولهذا يقالُ: فلانٌ وفلانٌ سواءٌ، أي: متساويانِ، وسواءٌ مصدرٌ، فيستعملُ للواحدِ والمثنَّى والجمعِ، فيقالُ: هما سواءٌ، وهم سواءٌ، وليسوا سواءً بمعنى: ليسوا متساويين في الصَّلاح والفساد، وفي الخيرِ والشَّرِّ[2].

2) ﴿أُمَّةٌ﴾: المعنى المحوريُّ: تَضَامُّ شيءٍ أو أشياء متجانسة، أي: لحاق بعضها ببعض في حيِّز يحيط بظاهرها بلطف، كما تضمُّ تلك الجلدةُ الرَّقيقة مادّةَ المخِّ (أُمِّ الرأس)، وكما تتضامُّ القامة، ومن لُطفها تكوينُها صورة متكاملة، وأُمَّة الطَّريق: مساحةٌ واسعة متَّصلة متكاملة أيضًا، وكذا تجمُّع النجوم في المَجَرَّة (أُمِّ النُّجوم)، وقد قال علماء اللُّغة: "كلُّ شيء ينضمُّ إليه سائرُ ما يليه؛ فإنَّ العرب تُسمِّي ذلك الشَّيء أُمًّا، والأُمُّ لكلِّ شيء: هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/31، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/31

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (سَوِيَ)، وابن جرير، جامع البيان: 7/118.

المَجمَعُ والمَضَمُّ "، ومنه "الأُمُّ: الوالدة؛ "لأنَّ أولادها يرتبطون بها، وهي أصلهم ومَجْمَعُهم (كانوا في بطنها)، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: 28]، الأُمُّ: الوالدة، وجمعها، ثم هناك ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأنعام: 92]، وهي مكَّة: سُمِّيت بهذا؛ لأنَّها منشأ الدِّين، ولدَحْو الأرض منها، ولأنَّها وسط الأرض، ولكونها قبلة وموضعًا للحجِّ، ومكان أوَّل بيت وضع للنَّاس، والمعنى: ولتنذر أهلَ أمِّ القرى ومن حولها، وهم سائر أهل الأرض، والأُمَّة: القَرْن الجيل من النَّاس (جماعة كبيرة متَّحدو الجنس أو زمن الوجود معًا)، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128][1]. والمرادُ بالأمَّةِ في هذه الآيةِ جماعةٌ منْ أهلِ الكتابِ[2].

3) ﴿قَآئِمَةٌ﴾: يدلُّ معنى القيام: على الاستقامةِ والثَّباتِ عليها، ومنه قولُهم: أَقَمْتُ العودَ، فَقامَ، أي: استقامَ، والقيامُ بالشَّيءِ: مراعاتُهُ وحفظُهُ وإصلاحُهُ؛ ليكونَ مستقيمًا ثابتًا.

والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشَّيء إلى أعلى ثابتًا، كقامة الإنسان، وقيامه، وثبات الدَّابَّة، والماء في مكانه، ومن الانتصاب يؤخذ معنى النُّهوض بالشَّيء و(تفعيله – كما يقال الآن) وأمَّةٌ قائمةٌ، بمعنى: مواظبة على أمرِ اللهِ مستقيمة فيه[3].

4) ﴿يَتْلُونَ﴾: يدلُّ التُّلُوُّ على معنى: اتِّباعِ الشَّيءِ ما يَسْبِقُهُ لُحوقًا به مِن خَلفِه، وتلاوةُ كتابِ اللهِ: فيها إتباعُ اللَّفظِ للَّفظِ، والتِّلاوةُ: تختَصُّ باتِّباع كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ اتِّباعًا أو قراءَةً أوعَرْضَ المَحْفُوظِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وتكون بصوتٍ[4].

5) ﴿ءَانَآءَ﴾: جمْعٌ، مُفْرَدُهُ: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى، وأَصْلُهُ: ساعةٌ من الزَّمانِ، وآناء اللَّيلِ: ساعاتُهُ[5]، والإناءُ: ذاك الَّذي يُرْتَفَقُ به (ظَرْفًا لماء أو طبيخ)، وأَنَى النَّباتُ، كبَكى: حانَ وأدْرَك، وأَنَّيتُ الطَّعامَ في النَّار: أَطَلْت مُكْثه فيها".

والمعنى المحوريُّ: تهيُّؤ الشَّيء وصلوح حاله لما يراد به، كالنَّبات المذكور، والظُّروف

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمم).

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/803.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قوم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 108، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (قوم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي، تلَوَ.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أنَى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 283.

المذكورة تهيِّئُ الطَّعام للتَّناول ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: 15] (جمع إناء)، ومن الظَّرف المكانيِّ استُعْمِل في الزمانيِّ، أي: مدَّة البقاء إلى أوان الاستعمال، أي: حين صُلُوحه لذلك[1].

6) ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾: السُّرْعَةُ: ضِدُّ البُطءِ، وكلُّ ما في القرآنِ ممَّا جاءَ مِنْ مادَّةِ هذهِ الكلمةِ هو مِنَ السُّرعةِ ضدِّ البطءِ، وأَسْرَعَ: طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ، وتَكَلَّفه، كأَنَّه أَسرَعَ المشي، أَي: عَجَّله، وصيغةُ يُسارِعُ مِنْ سَارَعَ على وزنِ: فاعَلَ، على معنَى: المبالغةِ في السُّرعةِ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ليسَ أهلُ الكتابِ متساوينَ في حالِهمْ وأوصافِهم، بلْ منهمْ طائفةٌ مستقيمةٌ على دينِ اللهِ، قائمةٌ بأمرِ اللهِ ونهيِهِ، يتلونَ القرآنَ باللَّيلِ، وهمْ يصلُّونَ متهجِّدينَ، ويؤمنونَ باللهِ وباليومِ الآخرِ، ويقومونَ بإرشادِ غيرِهم إلى ما ينبغي بأَمرِهم بكلِّ معروفٍ، أَو بمنعِهمْ عمَّا لا يَنبغي بنهيِهِمْ عنْ كلِّ منكَرٍ، ويبادرونَ إلى فعلِ الخيراتِ، وأُولئكَ منْ عبادِ اللهِ الصَّالحينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتَةُ النَّفي بـ(لَيْسَ):

إفادة (لَيْسَ) النَّفي من غيرِ قيدٍ للزَّمنِ

لَمَّا كانتْ (ليسَ) لِنفيِ مضمونِ الجملةِ مطلقًا منْ غيرِ قيدٍ للزَّمنِ[3]، أَفادَ الكلامُ نفيَ تساوي أَهلِ الكتابِ بينَ فريقِ المؤمنينَ وفريقِ الفاسقينَ مُطلَقًا؛ ليشملَ الماضي والحاضرَ والمستقبلَ.

سرُّ العدول عن (متساوين) إلى ﴿سَوَآءً﴾ في حيِّز النَّفي:

نفي السَّواء غير نفي الاستواء، فالسَّواء مصدر بمعنى: استواء

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أنو - أنى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرع).
(3) الإستراباذي، شرح الكافية: 4/193.

ظاهر الشَّيء أو سطحِه بسبب امتلاء وسطِه وباطنِه، والاستواء يعبِّر عن استقامة الظَّاهر واستوائه بغضِّ النَّظَر عن أصله أو وسطه، ومن ثمَّ فإنَّ نفي السَّواء نفي للمصدر، أي: نفي لاستوائهم في أصل الصِّفات والأحوال، هذا في نفي السَّواء المُعَرَّف.

نفي عموم أصلِ الاتِّصافِ بالقبائحِ المذكورةِ، لا نفي المساواةِ في مراتبِ الاتِّصافِ بها

وأمَّا نفي كونهم سواءً (بالتَّنكير)، فإنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم، أي: نفي عموم تساويهم في أصل الصِّفات والأحوال بينَ المؤمنينَ والفاسقينَ منْ أهلِ الكتابِ، وليس المقصود أنَّهم متَّفقون في أصل الاتِّصاف بها، ومختلفون في مراتب هذه الصِّفات، أو درجاتها، وهذا من إنصاف القرآن الكريم للآخر عمومًا، ولأهل الكتاب خاصَّةً.

وهذا سرُّ العدول عن (ليسوا متساوين) إلى ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ إذ إنَّ نفي التَّساوي لا ينفي تساويهم في أصل الصِّفات، بقدر ما يؤكِّد على نفي تساويهم في مراتبها ودرجاتها.

والمعنى: ليسَ جميعُ أهلِ الكتابِ متشاركينَ في الاتِّصافِ بِمَا ذُكرَ من القبائحِ والابتلاءِ، بما يترتَّبُ عليها منَ العقوباتِ[1].

دلالة الوقف القرآنيّ:

ليسَ المؤمنونَ والكافرونَ مِنْ أهلِ الكتابِ سَواءً

وردَ الوقفُ القرآنيُّ على قولِهِ تعالى: ﴿سَوَآءٗۗ﴾؛ ليفيدَ تمامَ الإسنادِ[2]، ولِتكونَ جملةُ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ ابتداءً استئنافيًّا بيانيًّا كما يأتي.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾:

لمّا قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ فكانَ ممَّا يُحرِّكُ السَّامعينَ، ويشوِّقُهم أنْ يَعرفوا سببَ نفيِ التَّساوي بينَ الفريقينِ، فاشتملَ الكلامُ على سؤالٍ، تقديرُهُ: لِمَ كانوا ليسوا متساوينَ؟ لِيقعَ قولُه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.

(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/582، والمهدوي، التّحصيل: 2/112.

تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ إلى آخر الكلام جوابًا للسُّؤالِ الَّذي هو مقتضَى الحالِ؛ لِيكونَ استئنافًا مبيِّنًا لِكيفيَّةِ عدمِ تساويهمْ ومُزيلًا لِما فيه من الإبهامِ مع الإيجازِ في الكلامِ[1].

تشويقُ المخاطبين لإزالةِ الإبهامِ في الكلامِ

ويحتملُ أَنْ يكونَ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ وما بعدَه توضيحًا لِمَا أُجمِلَ قبلَهُ، وتفسيرًا لهُ مِنْ حيثُ إنَّ نفيَ التَّسويةِ بينَ الفريقينِ، فيه إجمالٌ يقتضي بيانَ صفاتِ كلِّ فريقٍ وإيضاحَ أَحوالِهم[2].

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضِعَ المُضمَرِ:

وضعَ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ موضعَ الضَّميرِ العائدِ إليهم، فلَمْ يقُلْ: (مِنهمْ أمَّةٌ قائِمَةٌ)؛ لِفوائد، هي[3]:

الوصفُ بأهلِ الكتابِ يقتضي أنْ يكونوا صالحينَ

1- لِيَكُون هذَا الثَّنَاءُ شَامِلًا لِصَالِحِي الْيَهُودِ، وَصَالِحِي النَّصَارَى، فَلَا يُخْتَصُّ بِصَالِحِي الْيَهُودِ.

2- لِتحقيقِ ما بهِ الاشتراكُ بينَ الفريقينِ، وهو كونُهما مِنْ أَهلِ الكتابِ.

3- لِلإيذانِ بأنَّ تلكَ الأمَّةَ ممَّنْ أوتي نصيبًا وافرًا مِنَ الكتابِ لا مِنْ أَراذِلِهمْ.

4- لِلإشعارِ بأنَّ كونَهم مِنْ أَهلِ الكتابِ يقتضي أَنْ يكونوا مؤمنينَ صالحينَ لا فاسقينَ، ففي الإظهارِ مدحٌ لِلصَّالحينَ وتوبيخٌ لِلفاسقينَ منهمْ.

المجازُ المُرسَلُ في قولِه: ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

حثُّ أهلِ الكتابِ على أنْ يقتدوا بِمَنْ آمنَ منهمْ برسولِ اللهِ ﷺ

وإطلاقُ اسمِ أَهلِ الكتابِ عليهم، وهم قدْ أَسلموا، مِنْ بابِ المجازِ المرسَلِ، باعتبارِ ما كانَ، أَي: كانوا مِنْ أهلِ الكتابِ[4]، وجاءَ على طريقةِ المجازِ المرسَلِ باعتبارِ ماكانَ؛ لِيكونَ على معنى الحثِّ والتَّحضيضِ؛ ليحتذي أهلُ الكتابِ حذوَهم، وَيتَّصِفوا بصِفاتِهمْ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/402، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 262، 267.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/57.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/57.

بلاغةُ الاكتفاءِ بذكرِ أحدِ الضِّدَّينِ:

ذكـرُ المؤمنين وأوصافِهم يُغني عن ذكرِ الفاسقينَ وأوصافِهم

لمّا قال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ أفادَ أنَّهم ليسوا أمَّةً واحدة، ولمّا أتى بـ ﴿مِّنۡ﴾ الَّتي للتَّبعيض في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾، كانَ الظَّاهرُ أنْ يأتيَ بالقَسيمِ الآخرِ؛ لتمامِ الكلامِ بأن يُقَالَ: وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ، أو ما في هذا المعنى، إلَّا أنَّهُ حذفَ ذِكْرَ الْأُمَّةِ الْمَذْمُومَةِ؛ لأَنَّ ذِكْرَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ الضِّدِّ الْآخَرِ، فَذِكْرُ أَحَدِهِمَا يَسْتَقِلُّ بِإِفَادَةِ الْعِلْمِ بِهِمَا[1]، فَلَا جَرَمَ يَحْسُنُ إِهْمَالُ الضِّدِّ الْآخَرِ إِلَّا لاعتبارٍ مناسبٍ، وأهملَ المذمومةَ؛ لأنَّ السِّياقَ في بيانِ مدحِ الأمَّةِ القائمةِ بأمرِ اللهِ الحافظةِ له، وأيضًا للإشعارِ بأنَّهم إذا غابُوا؛ لمْ يُذكَرُوا، وإذا حضَرُوا؛ لم يُعرَفُوا، فلا يُؤبَهُ لهمْ.

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿قَآئِمَةٞ﴾:

الأمَّـة المحمودة ثابتةٌ على أمرِ اللـه مداومةٌ عليه

في التَّعبيرِ بـ ﴿قَآئِمَةٞ﴾ مجازٌ عن اعتدالِ الأمَّةِ المذكورةِ على أمرِ اللهِ وعملِها بدينِها عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ وثباتِها ودوامِها عليه، بقرينةِ السِّياقِ، فذكَرَ اللَّازمَ: وهو ﴿قَآئِمَةٞ﴾، وَأرادَ الملزومَ: وهو (الثَّباتُ والدَّوامُ)، ومنهُ قامَ على الأمرِ: دامَ وثبتَ، ويُقَالُ: سُوقٌ قَائِمَةٌ وَشَرِيعَةٌ قَائِمَةٌ، أي: ثابتة دائمة[2].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿يَتۡلُونَ﴾:

عبَّر بـ ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ لِمَا في التِّلاوةِ من معنَى الإلقاءِ بصوتٍ مع حُسنِ تَنغيمٍ، وقراءةٍ واضحةٍ بيِّنةٍ تتوالى كلماتُها[3]، فجاءَ بصيغةِ المضارعِ؛ لتصويرِ حالتِهمْ، وهمْ يتلونَ آياتِ اللهِ.

نكتة إسناد الفعل إلى واو الجماعة في قوله: ﴿يَتۡلُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ ﴿يَتۡلُونَ﴾ مسندًا إلى واوِ الجماعةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ حكمَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/331.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قوم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/112.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/409، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/337.

تلاوةِ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ وهمْ يصلُّونَ؛ إنَّما هو على المجموعِ، لا على كلِّ فردٍ منهم؛ إذْ بعضُ النَّاسِ يقومُ أوَّلَ اللَّيلِ، وبعضُهم آخره، وبعضُهم بعدَ هَجعةٍ، ثُمَّ يعودُ إلى نومِهِ، فيأتي مِنْ مجموعِ ذلكَ في المُدُنِ والجماعاتِ عبارةُ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ بالقيام، وهكذا كانَ صدرُ هذهِ الأمَّةِ[1].

نُكتَةُ مجيءِ ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ حالًا بعدَ نعتِ التِّلاوةِ:

كـثرةُ السُّجودِ أدلُّ على حسنِ صورةِ الإيمانِ

لمّا كانتِ الصَّلاةُ مشتملَةً على تلاوةِ آياتِ اللهِ؛ كانَ التَّصريحُ بتلاوتِهم آياتِ اللهِ في الصَّلاةِ أدلَّ على كمالِ الخضوعِ، فجاءَ بجملةِ النَّعتِ ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ ليفيدَ الثُّبوتَ، ثُمَّ أعقبَهُ بجملةِ الحالِ؛ ليصوِّرَ حالَهم في السُّجودِ؛ لأنَّهُ أبينُ لِمَا يفعلونَ، وأدلُّ على حُسنِ صورةِ أمرِهمْ[2].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾:

أفادت الواوُ الحاليَّة معنى: يتلونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ مُصَلِّينَ، وأفادَ الإسنادُ تقوِّي إثباتِ السُّجودِ لَهم وتأكيدِهِ بمجيءِ المسنَدِ فعلًا متحمِّلًا لضميرٍ يعودُ على المُسنَدِ إليهِ، فيكونُ بمنزلة تكرارِ الإسنادِ؛ لإفادةِ تحقيقِ سجودِهم؛ اهتمامًا بشأنِه وتعظيمًا له، وجاءَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِهِ حَالًا فَحَالًا[3].

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

تتابعُ النِّكاتِ البلاغيَّةِ في (يسجدون)

عبَّر بـ﴿يَسۡجُدُونَ﴾ عن الصَّلاةِ؛ ليكونَ مِنْ بابِ ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ على طريقةِ المجازِ المرسَلِ، وذكرَ هنا السُّجودَ دونَ غيرِهِ مِنْ أجزاءِ الصَّلاةِ كالرُّكوعِ مثلًا لنكاتٍ هي[4]:

1- لمناسبةِ السُّجودِ لِمَا فيه من الرِّقَّةِ والتَّذلُّلِ لتلاوةِ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/493.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/402، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/58.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/58.

2- فيهِ بيانُ حسنِ صورةِ السُّجودِ.

3- للإشارةِ إلى طولِ سجودِهم وكثرتِه؛ فإنَّ مَنْ أكثرَ مِنْ شَيءٍ؛ اشْتُهِرَ بذلكَ الشَّيءِ، وَوُصِفَ بهِ.

4- فيهِ إشعارٌ بالحثِّ على طولِ السُّجودِ في صلاةِ التَّهجُّدِ؛ لورودِه في مقامِ التَّمدُّحِ والثَّناءِ.

5- فكانَ التَّعبيرُ - بما ذُكِرَ - أبلغَ مِنْ أَنْ يُقالَ: وهم يَتَهَجَّدون.

نُكتَةُ تقديمِ نعتِ التِّلاوةِ على نعتِ الإيمانِ باللهِ:

تعظيمُ شأنِ تلاوةِ القرآنِ

لِزيادةِ تحقيقِ المخالفةِ معَ الفاسقينَ مِنْ أهلِ الكتابِ، ولِتفرُّدِهم بخصيصَةِ تلاوةِ آياتِ اللهِ، ولتعظيمِ شأنِها، ولِتوضيحِ نفيِ المساواةِ بينهم وبينَ الَّذين وُصِفوا آنفًا بالكفرِ بها[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾:

المتَّقون مستقرُّون في الخيراتِ ملازمونَ لَها

شبَّهَ مسارعةَ المؤمنينَ مِنْ أهلِ الكتابِ في الخيرِ وشدَّةِ إقبالِهم عليهِ وجَوَلانِهم فيهِ بنشاطٍ وقُوَّةٍ معَ حرصِهم عليه بإسراعِ الماشي في مكانٍ محدَّدٍ، وإيثارُ كلمةِ ﴿فِي﴾ على ما وقع في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاعَ مَجَازٌ على طريقة الاستعارة التَّبعيَّة بِمَعْنَى: التَّوَغُّلِ، فَيَكُونُ الحرفُ ﴿فِي﴾ قَرِينَةَ الْمَجَازِ، كَقَوْلِهِمْ: أَسْرَعَ الشَّيْبُ في رَأْسِ فُلَانٍ، فَجَعَلَ الخيراتِ بِمَنْزِلَةِ الظَّرْفِ، وَجَعَلَ مسارعتهم في الخيراتِ وَشِدَّةَ استقرارِهم فيها بِمَنْزِلَةِ جَوَلَانِ الشَّيْءِ فِي الظَّرْفِ جَوَلَانًا بِنَشَاطٍ وَسُرْعَةٍ؛ لِبيانِ استقرارِهم وملازمتِهم لِلخَيراتِ ملازمةَ المظروفِ للظَّرفِ، فهمْ يتقلَّبونَ فيها وفي مراتبِها، ويُسارعونَ فيها متَى وجدوا لِذلكَ فُرصَةً؛ لِفَرطِ رغبتِهمْ في الخيراتِ لا أنَّهم خارجُون عنها منتهونَ إليها[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/280، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

وَنَظِيرُ هذهِ الاستعارةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ﴾ [المائدة: 62]، وَقَوْلُهُ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 56]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61].

نُكتةُ تتابعِ الصِّفاتِ:

التَّعريضُ بذمِّ مَنْ لم يتَّصف بهذهِ الصِّفاتِ من اليهودِ

قدْ يُقالُ: لِمَ وصفَ اللَّهُ تعالى المؤمنينَ مِنْ أَهلِ الكتابِ بهذهِ الصِّفاتِ دونَ غيرِها؟ والجوابُ: أنَّه وصفَهمْ بخصائِصَ ما كانتْ في اليهودِ من تلاوةِ آياتِ اللَّهِ باللَّيلِ مصلِّينَ وساجدينَ، ومن الإيمانِ باللَّهِ؛ لِأنَّ إيمانَهم بهِ كلا إيمانَ؛ لِإشراكِهمْ به عُزيْرًا، وكفرِهمْ ببعضِ الكتبِ والرُّسلِ دونَ بعضٍ، ومِنَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ؛ لِأنَّهم يصفونَهُ بخلافِ صفتِهِ، ومِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ؛ لِأنَّهم كانوا مُداهنينَ، ومِنَ المُسارعةِ في الخَيراتِ؛ لِأنَّهمْ كانوا مُتباطِئينَ عنها غيرَ راغبينَ فيها[1]، ففي ذكرِ هذهِ الصِّفاتِ تعريضٌ بذمِّ مَنْ لم يتَّصف بهذهِ الصِّفاتِ من اليهودِ.

فوائدُ دلاليَّةٌ في تركيبِ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

أفاد هذا التركيبُ ثمانيةَ معانٍ مجتمعة:

أبوابُ الخيرِ كثيرةٌ وسبلُه متنوِّعَةٌ

الأوّل: في الكلامِ تعريضٌ بتباطؤِ اليهودِ في فعلِ الخيراتِ بل بمبادرتِهم إلى الشُّرورِ[2].

الثاني: آثرَ اختيارَ الفعل ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾؛ لِما تدلُّ عليه الكلمةُ من الإشعارِ بِفرطِ رغبتهم في فعل الخيرات؛ لأنَّ من رغب في الأمر؛ سارع في تولِّيه والقيام به، وآثر الفور على التَّراخي[3].

العجلة مذمومة والسُّرعة في الخير محمودة

الثالث: واختارَ لفظَ المسارعةِ، ولم يعبِّرْ بالعجلةِ؛ لِأنَّ السُّرعةَ هي التَّقدُّمُ فيما يجوزُ أنْ يُتَقدَّمَ فيه، وهي محمودةٌ، وضدُّها الإبطاءُ،

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/403.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/403.

وهو مذمومٌ، والعجلةُ التَّقدُّمُ فيما لا ينبغي أنْ يُتَقَدَّمَ فيه، وهي مذمومةٌ، وضدُّها الأناةُ، وهي محمودةٌ[1].

الرابع: لمّا كانتْ صيغةُ (سارعَ) على وزن (فاعلَ)؛ أفادت أنَّهم طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْ أَنفُسِهم، وتَكَلَّفُوه؛ ليفوزوا بغنيمةِ الخَيراتِ.

الخامس: أفادتْ صيغةُ (فاعَلَ) معنى: المبالغةِ في المسارعةِ في الخيرات، فليستِ الصِّيغةُ على معنى: المغالبةِ ولا المشاركةِ[2].

السادس: كما دلَّتْ صيغةُ المضارَعَةِ على تجدُّدِ حالِهم في التَّسارُعِ في الخيرات، فبعدَ أَنْ تأصَّلَ الخيرُ فيهم؛ يُسارعونَ في إِظْهَارِ آثَارِهِ عِنْدَ أَدْنَى مُنَاسَبَةٍ وَفِي كُلِّ فُرْصَةٍ، فيحدثُ منهمْ في كلِّ وقتٍ أشياءُ تزيدُ في دخولِهم في الخيراتِ.

مدح الاجتماعِ على الطَّاعة

السابع: وجاءتِ الصِّيغةُ متَّصلةً بضميرِ الجمعِ (الواو)؛ لإفادةِ المدحِ على الاجتماعِ على الطَّاعة.

الثامن: أفادَ مجيءُ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بصيغةِ الجمعِ المُعرَّفِ بـ (الـ) الَّتي للاستغراقِ الإشعارَ بِسَعَةِ الخيراتِ وتنوِّعِها وتكثُّرِها؛ ولِتشملَ الأفعالَ اللَّازمةَ المقتصرةَ على صاحبِها والمتعَدِّيةَ إلى الآخرينَ، فهمْ يسارعونَ في كلِّ الخيراتِ المتيسِّرة ويتقلَّبون فيها، فأبوابُ الخيرِ كثيرةٌ وسُبُلُهُ متَنَوِّعَةٌ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ثلاثُ فوائدَ[3]:

الأوّل: فيه إشارةٌ إلى الأمَّةِ باعتبارِ اتِّصافِهم بما فُصِّلَ من النُّعوتِ الجليلةِ، ففيه إيجازٌ في الكلامِ.

الثاني: لمّا كانَ اسمُ الإشارةِ فيهِ معنى البُعدِ؛ أوحى بعُلُوِّ درجتِهم وسُمُوِّ طبقتِهم في الفضلِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/403.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/462.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

الثالث: آثرَهُ على الضَّمير، فلم يقل: (وهم من الصَّالحينَ) لِلإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ والمدحِ، أي: أُولئكَ المنعوتونَ بالصَّلاحِ بسببِ اتِّصافِهم بِتلكَ الصِّفاتِ المدوحةِ.

مناسبةُ مجيءِ الأوصافِ في آيتين:

الأصلُ في قبولِ أَفعالِ الخيرِ هو الإيمانُ

لمّا كانَ قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفتين لأُمَّة[1]؛ كانَ ذكرُ الوصفِ الأوَّلِ؛ لِبيانِ خَصوصِيَّةِ هذهِ الطَّائفةِ مِنْ أَهلِ الكتابِ، فقدَّمَهُ لِهذا السَّببِ، ثُمَّ ردَّ على ذكرِ الإيمانِ وجعلَه بدايةَ آيةٍ؛ لِبيانِ أنَّ الأصلَ في كلِّ ما يفعلونَهُ مِنْ أَفعالِ الخيرِ وقبولِها: هو الإيمانُ باللهِ وبرسولِهِ وباليومِ الآخرِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلَاوَة وَالْقِرَاءَة:

التِّلَاوَة: لَا تكون فِي الْكَلِمَة الْوَاحِدَة، وَالْقِرَاءَة: تكون فِيهَا، تَقول: قَرَأَ فلَان اسْمه، وَلَا تَقول: تَلا اسْمه؛ وَذَلِكَ أَنَّ أصل التِّلَاوَة من قَوْلك: تَلا الشَّيْءُ الشَّيْءَ يتلوه؛ إِذا تبعه، فَإِذا لم تكن الْكَلِمَة تتبع أُخْتهَا، لم تسْتَعْمل فِيهَا التِّلَاوَة، وتستعمل فِيهَا الْقِرَاءَة؛ لِأَنَّ القراءة اسْم لجِنْس هَذَا الْفِعْل، فالتِّلَاوَة: لَا تكون إِلَّا لكلمتين فَصَاعِدًا، وَالْقِرَاءَة: تكون للكلمة الْوَاحِدَة، التِّلَاوَة فِي الْكَلِمَات: يتبع بَعْضهَا بَعْضًا[2].

فالتِّلاوة أنسب للسِّياق؛ إذ إنَّها وردت في مقام الثَّناء والمدح لعبادة فريق من أهل الكتاب، ومتابعتهم تلاوة آيات الله آناء اللَّيل بخشوع وخضوع.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/402.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغويَّة، ص: 27، 63.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»